أضواء على
دراسة اللغة العربية في جنوب الجزيرة العربية
للدكتور رفعت هزيم

تصدير بقلم

أ.د. محمد محفل(*)

قررت لجنة الإشراف على (مجلة مجمع اللغة العربية) في دمشق، بعد المداولة المعهودة في جلساتها الدورية، نشر دراسة الأستاذ الدكتور رفعت هزيم ببحوثها الثلاثة، ذات الصلة الوثيقة بلغات/ لهجات اليمن، من الأصول وحتى ظهور الإسلام (٧ ق.م -١هـ/ ٧م) وإليكم عناوينها بمقتضى خطة نشرها بالتعاقب، اعتباراً من عددنا العتيد، فعدد ثانٍ فثالث. أما عنوان الدراسة فهو : **العربية في جنوب الجزيرة العربية حتى ظهور الإسلام.**

١- نقوش المسند

٢- كتابات الزبور

٣- الحِمْيَرية

يسعى الباحث في العنوان الأول (نقوش المسند) لجلاء إشكالية الموروث اللغوي اليمني في أصوله السبئيّة والقتبانية والحضرمية، من أقدم نقش مسند

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(القرن السابع ق.م، علماً أن بعضهم ذكر القرن التاسع ق.م) ليفضي إلى العصر الحميري، قبيل فجر الإسلام، ومدى قرابة تلك اللغات/ اللهجات من عربية التنزيل الحكيم والشعر الجاهلي أو بُعدها عنهما... ولمأثور أبي عمرو بن العلاء النصيب الأكبر في إثارة الموضوع، فكانت الإشكالية التي ردّد أصداءها اللاحقون كابن جنّي (الخصائص) وغيره، حتى عصر ابن خلدون ومن جاء بعده... «وما لسانُ حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا».

يقول ابن خلدون: «ولقد كان اللسان المُضريُّ مع اللسان الحِمْيَرِيِّ بهذه المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته. تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة، ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها، كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري أنه من القول وكثير من أشباه ذلك، وليس ذلك بصحيح. ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها».(١) كما نلاحظ، فخطاب ابن خلدون هو تردادٌ لما جاء به أبو عمرو ابن العلاء... ونفس الاجتهاد نراه لاحقاً لدى السيوطي في المزهر(٢).

يقول الدكتور شوقي ضيف في «**العصر الجاهلي**»:

«ولم تكن تختص بهذا الشعر في الجاهلية قبيلةٌ دون غيرها من القبائل الشمالية عدنانية أو قحطانية، وآية ذلك أننا نجد الشعراء موزعين عليها، فمنهم من يُنْسب إلى القبائل القحطانية مثل امرئ القيس الكِندي وعديّ بن رَعْلاء الغسّاني

---

(١) ابن خلدون، **المقدمة**، دار الشرق العربي، حلب ٢٠٠٤، ص ص ٥٤٨– ٥٤٩.

(٢) انظر دراستنا: **العربية لغةً وكتابةً**، مجلة التراث العربي عدد خاص مزدوج، اللغة العربية واللغات الأخرى، اتحاد الكتاب العرب، العددان ٧١-٧٢، دمشق١٤١٨هـ / ١٩٩٨م. ص ٣٨ وما بعدها.

والحارث بن وعلة الجَرْمي القُضاعي ومالك بن حَرِيم الهَمْداني وعبد يغوث الحارثي النجراني والشنفرى الأزديّ وعمرو بن معد يَكْرب المَذْحِجي، أما من يُنسبون إلى مضر وربيعة فأكثر من أن نسميهم، وعلى شاكلتهم من يُنسبون إلى الأوس والخزرج القحطانيين في المدينة. ونحن لا نستطيع أن نحصي من جرى لسانهم بالشعر حينئذٍ، فقد كانوا كثيرين... ويخيّل إلى الإنسان أن الشعر لم يكن يستعصي على أحدٍ منهم[٣]...». وفيما يتعلق بالحميرية والفصحى (المضرية عند ابن خلدون) يقول الأستاذ محمد الأنطاكي: «... واللهجات العربية الجنوبية شديدة التشابه، حتى ليمكن القول: إنها جميعاً لهجة واحدة... وعلى كلٍّ فاللهجات اليمنية جميعها لهجات عربية صحيحة لا تختلف عن الفصحى بأكثر مما تختلف لهجتا تميم وقريش أو أسد وهُذَيْل[٤]...».

لقد قسم النسابون العرب مختلف قبائل شبه الجزيرة العربية الشمالية إلى: عدنانية مضرية وقحطانية يمنية، وكم من مرةٍ نرى هؤلاء النسابين يختلفون في أصل بعض القبائل، أهي عدنانية أو قحطانية: كخُزاعة وقُضاعة وخثْعم... ولأسبابٍ اقتصادية وسياسية (صراع على الكلأ والماء) كانت بعض القبائل تهاجر من الجنوب إلى الشمال أو غيره... وجاء في الأخبار أن السبئيين والمعينيين قد وضعوا منذ أزمان مبكرة حاميات لتأمين سلامة قوافل (طريق البخور والتوابل) المنطلق من اليمن إلى شمال الجزيرة العربية وحتى بلاد الشام والرافدين منذ عصور «سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمنات»، قبل أيام «سيل العرم وخراب سد مأرب»... ومن هذه القبائل (أقوام كِنْدَة) من حضرموت وإياد من نجران، نجدها في ربوع نهر الفرات، وبعض الأزد وصل إلى عُمان إضافةً إلى شمال الجزيرة كالأوس والخزرج، وكذلك

(٣) د.شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، **العصر الجاهلي**، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦، ص١٨٦.

(٤) محمد الأنطاكي، **الوجيز في فقه اللغة العربية**، مكتبة الشهباء، حلب ١٩٦٩، ص ١٠٠.

الغساسنة في بلاد الشام على حين نجد بني لخم والمناذرة التنوخيين في جنوب العراق... ومن القبائل اليمنية المهاجرة: طيِّئ وقُضاعة وبهراء وجُهينة وبَلِيّ وجُذام وكلب وعامِلة وخُزاعة، جميع أقوام هذه القبائل قد انتقلوا من ربوع قحطان إلى بلاد عدنان والشام والعراق... ولقد جاور هؤلاء (القحطانيين) بل واختلط بهم القبائلُ العدنانية المضرية، كقريش في مكة وثَقيف في الطائف وبكر ومختلف عشائرها من بني عِجْل وحنيفة وشيبان وذهل، أولئك الذين ورد ذكرهم في اليمامة والبحرين، في فجر الإسلام ونجد أسماء بكرٍ وربيعة في شمال بلاد الرافدين غرباً والجزيرة الشامية شرقاً، في الموصل وآمِد إلخ... وهل ننسى تَغْلِب في بلاد الشام، وكِنانة وهُذَيْل بجوار مكة، ثم قبائل قيس عيلان في نجد من هَوازِن إلى سُلَيْم وعامر وعشائر كِلاب وعُقَيْل وعَبْس وذُبْيان إلخ...

لا جَرَمَ أن عالم شبه جزيرة العرب كان، منذ فجر التاريخ (الألف الرابع ق.م) ميداناً رحباً لهجرات بشرية متبادلة ومتعاقبة بين أقوام سائر أصقاعه، إضافةً لتلك الموجات البشرية التي انطلقت - لا سيما في شماله- إلى شتى أنحاء بلاد الشام والرافدين، وعبر البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء إلى وادي النيل، تلك الموجات التي أطلق عليها أهل الاستشراق اسم «الهجرات السامية». ولنا تحفّظ على صيغة الموصوف وصفته(*) بعد أن أطلق شلوتسر التسمية السامية «التوراتية» (**سفر التكوين** ١٠/ ١): «هؤلاء مواليد بني نوح وسام وحام

(*) انظر دراستنا: **العربية لغةً وكتابة**، ص ٤٤ وما بعدها. «لم يكن عالم شبه الجزيرة العربية مقتصراً على ما نعهده اليوم في حدود المملكة العربية السعودية، بل كان يشمل أيضاً بلاد الرافدين والشام، وهذا الأمر لاعلاقة له بموجات بشرية تنطلق كل (٥٠٠ سنة) اعتباراً من منتصف الألف الرابع ق.م بل كان جولاناً غير منقطع في كل الاتجاهات. أما صفة (سامية) فهي تسمية معاصرة وهي توراتية أطلقها شلوتسر في نهاية القرن الثامن عشر.»

ويافث ومن ولد لهم من البنين بعد الطوفان»، حذا حذوه بعض المستشرقين وفي مقدمتهم (إرْنِست رِنان E.Renan) في موجزه المعروف «في اللغات السامية». وعندما أصدرنا كتابنا الجامعي «**المدخل إلى اللغة الآرامية**»، المقرر لطلاب التاريخ والآثار في عام ١٩٧٢، استدركنا قائلين «ومما لا شكّ فيه أن مفهوم وحدة السلالة «الذُرّية الواحدة» Monogénisme، كما جاء في التوراة والذي يفترض أن مختلف الأجناس البشرية، قد تفرّع كل واحد منها فيما مضى من مثال أصلي واحد، قد ساعد على سريان ذلك المفهوم الباطل، الذي دحضته مختلف الدراسات المقارنة في المجالات العرقية واللغوية والتاريخية، إلخ...[٥]

ويفاجئنا الحميري، من أسلافنا العلماء، في معجمه «**الروض المعطار**»، في تعريفه لاسم «بلاد الشام» فيقول «الشام: مهموز الألف ولا يُهمَز، في الإقليم الخامس، قيل سُمِّي شاماً لشامات هناك حمر وسود. ولم يدخلها سام بن نوح قط. فإنه قال بعض الناس: إنه أول من اختطها فَسُمِّيت به، واسمه سام بالسين فعُرِّبت فقيل: شام بالشين المعجمة[*] [**انظر المعجم الجغرافي في الروض المِعطار في أخبار الأقطار** للحِمْيَريّ، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان الطبعة

(٥) انظر: محمد محفل، **المدخل إلى اللغة الآرامية**، منشورات جامعة دمشق ١٤١١-١٤١٢ هـ/ ١٩٩١-١٩٩٢م، الطبعة الخامسة، صص ٥-٦ اقترح بعضهم «لغات الوطن العربي القديم» أو «العروبية» عوضاً من «لغات سامية».

(*) في كتابنا، دمشق: **الأسطورة والتاريخ، من ذاكرة الحجر إلى ذكرى البشر**، إصدار الأمانة العامة لِـ«دمشق عاصمة الثقافة العربية،دمشق ٢٠٠٨» ص ١٧ «... إنه لأمر عجيب مدهش لدى الحميري عندما يقول إن «سام» أول من اختطها، وعُرّب الاسم فأصبح «شام» بالشين المعجمة... لا ندري هل كان للحميري اطلاع ما أو معرفة بلغة مشرقية قديمة كالسريانية مثلاً، ونحن نعلم أن هذا الأمر كان شائعاً: فنقول «شومو بالآشورية وشما بالسريانية» إشارة إلى الاسم وحمشة عوضاً عن خمسة وروش/ رأس وهكذا يكون «التبادل» الساميون/ الشاميون وارداً.

الثانية ١٩٨٤، مادة الشام، ص ٣٥٥].

وفيما يخصُّ أهل الاستشراق ودورهم في الكشف عن وثائق اليمن قبل الإسلام، فصاحب الدراسة (أ.د رفعت هزيم) لم يغمط الرواد الأوربيين حقهم وذكر العديد منهم معترفاً بفضلهم. قلنا في حفل استقبالنا عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق: «لقد تقاعسنا وألقينا المسؤولية على كاهل المستشرقين... فمنهم من أدى المهمة بأمانة ونحن لا ننكر فضلهم... ولكن البعض الآخر شَهَر سيفه السام... وراحوا يعيثون فساداً، حتى بتراثنا العربي الإسلامي...»(٦)

نعود مُجَدَّداً إلى أهل الاستشراق. يقول (الأستاذ مقبل التام عامر الأحمدي) في دراسةٍ نشرها في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق «**السِّجلّات والزُّبُر المتوارثة من الجاهلية في اليمن** المجلد ٨٢، الجزء ٢» الصفحة ٣٠١:

«لم يخلُ أوانٌ من المرتابين – مستشرقين كانوا أو عرباً حذوا حذوهم واقتفوا آثارهم- في معرفة العرب الكتابة وممارستها وتعاطيهم إياها حين ظهور الإسلام، يرومون من وراء ذلك كلّه القدح في اللسان العربي، وإلباس أهله لبوس الجهل وسُبَّتَه.

ولهذا جُمع في هذا البحث ما يدل على معرفة العرب الكتابة وتوارثهم كتباً من الجاهلية، حوت أنسابهم وأخبارهم وأشعارهم، واختير اليمن صقعاً من أصقاع جزيرة العرب ليكون مجال هذا البحث لما لهذا الصقع من ماضٍ يشهد على أن أهله رُزِقوا معرفة الكتابة في جاهليتهم وإسلامهم، وتوارثوا مادتها مسانَدَ وسجلات وزُبُراً، حتى انتهت إلى علماء القرنين الثالث والرابع الهجريين كالهمداني وشيخه الحنبصي».

(٦) **مجلة مجمع اللغة العربية**، دمشق، المجلد ٨٤، الجزء ٤، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ٢٠٢.

وفي (الصفحة ٣٢١/ ٣٢٢): «وقد أنكر جواد علي، حين تحدّث عن تدوين التاريخ الجاهلي [**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١/ ٩٢-٩٥**] أن تكون هذه السجلات جاهلية، وأنكر كثيراً مما حوت، أما الأشعار فيها فدفعها جملةً، لا لشيءٍ، سوى أن المستشرقين لم يقفوا – في حينه – على قصائد منقوشة، فضلاً على تضعيفهم العلماء العرب واتهامهم إياهم بالجهل بتاريخهم ولغتهم، وكثيراً ما كان يؤمن جواد علي – رحمه الله – بآراء المستشرقين، وقلّما يناقشها...

وجاء في (الصفحة ٣٢٣/ ٣٢٤): «وقد نقل الهَمْداني في تآليفه مادةً غزيرةً نادرة عن النقوش والمساند، حَريٌّ بها أن تكون مادةَ مقالٍ مفردٍ خالصٍ، وقد جمعتُ منها ما انتهى إلينا في كُتُبٍ وقف عليها المستشرقون، ونعرض فيها معرفة الهَمْداني بلسان حمير قراءةً وكتابةً وقواعدَ ولغةً، وندفع عنه مَعَرّة الجهل التي ما فتئ المستشرقون ومن لفّ لفَّهُم يتهمونه بها».

وبعد نَشر دراسة الأستاذ مقبل عامر الأحمدي في مجلة مجمعنا بعدة شهور، ناقش باحثنا أطروحته لنيل مرتبة الدكتوراه وعنوانها «**شعراء حمير، أخبارهم وأشعارهم في الجاهلية والإسلام**».

وبوصفي باحثاً في التراث اللغوي قبل الإسلام، أغتنم الفرصة للتذكير بمصنفين لزميلين عربيين شدّ انتباههما عالم نقوش شمال الجزيرة العربية قبل الإسلام:

الأول: أردني وهو (محمود محمد الروسان) عمل في البدء في دوائر الآثار الأردنية حتى عام ١٩٧٨ قبل أن ينتقل إلى العمل في عالم الآثار والمتاحف السعودية. حيث نشرت له (جامعة الملك سعود كلية الآداب قسم الآثار) مصنّفه «**القبائل الصفوية والثمودية، دراسة مقارنة**»، وهي رسالته للحصول على درجة الماجستير في (قسم التاريخ بجامعة الملك سعود) في عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

والثاني: باحث سعودي وهو (أ.د. سليمان بن عبد الرحمن الذَّييب)، وقد نشرت له (دارة الملك عبد العزيز ١٤٣١هـ)«**مدونة النقوش النبطية في المملكة العربية السعودية**» بمجلدين: ج١، ٧٣٤ صفحة + ج٢ ، ٧٣٤- ١٤٦٧ صفحة.

لم يكن عالم شبه الجزيرة العربية معزولاً عن بلاد الرافدين والشام، ومن المعروف، أنَّ نَبُونِيْد[٧] (٥٥٩-٥٣٩ ق.م) ، آخر ملوك السلالة البابلية الحديثة (الكلدانية) ٦٢٦-٥٣٨ ق.م قد غادر بابل عاصمة مملكته، لجولةٍ في بلاد الشام، قبل أن ينتقل إلى شمال شبه الجزيرة العربية ليقيم في واحة تيماء[*] في أواخر أيام عهده. والإشارة إلى بلاد العرب الشمالية عديدة في لوائح ملوك الإمبراطورية الآشورية الحديثة. ففي معركة (قرقر ٨٥٣ ق.م) نجد في عداد أعضاء الحلف الآرامي، عدو آشور، (جنديبو العربي) على رأس ألف جمل. ومن الملوك الآشوريين الذين بذلوا جهدهم للسيطرة على شمال شبه الجزيرة العربية، إحدى محطات طريق البخور والتوابل العاهل الآشوري (تجلتفليسر الثالث ٧٤٥-٧٢٦ ق.م) .

أما بلاد اليمن، فكما يقول ابن خلدون «ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافةً في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى إفريقية والبربر من بلاد المغرب... وذكر المسعودي أيضاً أن ذا الإذعار من ملوكهم قبل إفريقش وكان على عهد سليمان -عليه السلام- غزا المغرب ودوخه... وكذلك يقولون في تبّع الآخر وهو أسعد أبو كرب... أنه

(٧) انظر، **دمشق الأسطورة والتاريخ**، ص ٩٩-١٠٠.

(*) تقع تيماء شمالي شبه الجزيرة العربية، جنوبي دُوْمة الجندل في جوف وادي السرحان في شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبي شرقي الأردن. وقد اشتهرت طريقًا للقوافل بين شمالي شبه الجزيرة العربية والعراق وسورية.

مَلَكَ الموصل وأذربيجان ولقي الترك فهزمهم وأثخن، ثم غزاهم ثانيةً وثالثةً كذلك، وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس، وإلى بلاد الصغد من بلاد الترك وراء النهر، وإلى بلاد الروم، فملك الأول البلاد إلى سمرقند وقطع المفازة إلى الصين، فوجد أخاه الثاني الذي غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها، فأثخنا في بلاد الصين ورجعا جميعاً بالغنائم، وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها إلى هذا العهد، وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فدرسها ودوَّخ بلاد الروم ورجع.

وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة[٨].

ويحذو شوقي ضيف في **الأدب الجاهلي**، حذو ابن خلدون قائلاً: «وكان المعروف عن هؤلاء العرب الجنوبيين قليلاً، فهو لا يتجاوز إشارات وَرَدَتْ عنهم في العهد القديم وفي بعض الآثار المصرية والبابلية والآشورية وفي كتابات المؤرخين والجغرافيين من اليونانيين والرومان، ثم ما كتبه العرب عنهم بعد الإسلام، وتختلط به الأساطير»[٩].

لم تصدر مقولة أبي عمرو بن العلاء عن زيغ منهجي أو ما شابه ذلك، بل عن غموض أخبار اليمن واضطرابها في تلك الأيام. كما جاء معنا آنفاً... وأبو عمرو بن العلاء (ت١٥٢هـ) هو من كبار علماء البصرة، جمع أشعار الجاهلية وهو أحد القراء السبعة، وهو شيخ يونس بن حبيب والرؤاسي والخليل بن أحمد الفراهيدي، ومن معاصريه الذين أخذوا عنه الأصمعي وأبو عبيدة... ولو عاصر الهمداني(*) أو جاء بعده، وتناهت إلى سمعه أصداء أخبار «**الإكليل**»

(٨) المقدمة: ص٢١-٢٢.

(٩) ص ٢٧- ٢٨.

(*) وُلِدَ الهَمْدَاني أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب في صنعاء من أسرةٍ يمنية تنتسب إلى =

و «**صفة جزيرة العرب**» فالأرجح ألّا يلقي أبو عمرو بن العلاء كلامه جُزافاً... وكما قالوا: «لكل عالم هفوة»...

عسى أن تكون دراسة أ.د رفعت هزيم ذات فائدة لغوية وتاريخية للقارئ العربي، وتحثّ الباحثين العرب على المُضي قُدماً في كشف الغموض عن التراث التاريخي اللغوي لليمن الخضراء بقراءةٍ جديدة وبعيون عربية لنقوش المسند وكتابات الزبور...

* * *

= قبيلة هَمْدَان الشهيرة في جنوب شبه الجزيرة العربية، ونجده شابًّا في صعدة الواقعة على طريق الحج من صنعاء إلى مكة، بعد إقامته في مكة عدَّة سنوات. لم تكن إقامة الهمداني في صعدة مريحة تماماً، لحسد البعض والنزاع الشديد مع شعرائها، فغادرها إلى صنعاء حيث توفِّي عام ٣٣٤هـ في سجنها، ضحيّةَ مكائد خصومه ودسائسهم. ويتجلّى لنا الهمداني من خلال مصنفاته عالماً موسوعيًّا: فهو مؤرخ وعالم بالأنساب وجغرافي وشاعر وعالم آثار. ومؤلفاته عديدة، أشهرها: «**الإكليل**» و «**صفة جزيرة العرب**» وله أيضاً «**الدامغة**» و«**الحيوان**» و«**عجائب اليمن**» **و** «**الإبل**» فضلاً عن «**زيج الهمداني**» و«**مفاخر اليمن**» و«**المسالك والممالك**» إلخ... ونجد أخباره متناثرة لدى القفطي (علي بن يوسف جمال الدين، ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) الوزير والمؤرخ في كتابه (**أخبار العلماء بأخبار الحكماء**) ونقل عنه (ابن دحية محمد بن حسن الكلبي، ت ٦٣٢هـ) في مصنفه (**المطرب من أشعار أهل المغرب**)، وكذلك صنع (ياقوت الحموي ت ٦١٩هـ) في كتابه (**معجم البلدان**). ويعتبر المستشرق النمساوي(لويس شبر نجر ١٨١٣-١٨٩٣)، الشهير بدراساته عن الحضارة الإسلامية كتاب (**صفة جزيرة العرب**) أفضل ما أنتجه العرب في الجغرافية إلى جانب كتاب المقدسي (**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**) وتوفي المقدسي عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م.